أنسنة الأحياء السكنية في محيط جبل أحد بالمدينة المنورة

Humanization of residential neighborhoods in the vicinity of Mount Uhud in Medina

أحمد حسين أبوالهيجاء [1*]

1.جامعة طيبة – كلية الهندسة، المدينة المنورة alhaija2@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2021/09/11 تاريخ القبول : 2021/12/04

ملخص: يهدف البحث إلى تحديد وسائل وآليات جوهرية تساعد في تحسين جودة الحياة في بيئة حضرية خاصة بالمدينة المنورة، وذلك في ظل إشكاليات عمرانية عشوائية الطابع، وفي محاولة علاج هذه الإشكاليات من نواحي شكلية تعمل على إزالة التشوهات البصرية، ولكنها لا تعالج كفاية احتياجات الساكنين الخدماتية ولا تساهم في رفع جودة الحياة حسب المعايير المعيشية ونمط الحياة التي وثقت في متن البحث. وتتفاقم هذه المشكلة إثر انتشار العشوائيات السكنية في محيط جبل أحد والأثر السلبي عليه والتعارض مع مفاهيم الحفاظ على ذاكرة المكان التاريخية ومحيطه البيئي. لذا فقد أصبح من الضرورة بمكان تحديد أسس ترتكز عليها مفاهيم الجودة وطرحها كدليل يستنير به صاحب القرار في أعمال التأهيل بما يشمل أبعاد مختلفة تمس الجانب الإنساني والتاريخي والثقافي. وقد ركزت منهجية البحث على رصد وتوثيق مصادر محدودة تناولت هذا الموضوع، تخللها جمع معلومات ميدانية بسبب نقص الدراسات والأبحاث ذات الصلة. واعتمد الباحث على قراءة الوثائق والمخططات والإرشادات الرسمية وما ينتج عنها من تطبيق على أرض الواقع، موضحاً التناقضات الدالة على إشكاليات منهجية في العمليات التنفيذية لبعض مشاريع التأهيل. وقد خلص البحث بتوصيات تتضمن مفاهيم تساعد في فهم جوهر أهداف الوثيقة التي أقرتها مؤخرا وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان، والمعايير الحضرية القياسية اللازمة لتطبيقها على أرض الواقع، وبخاصة كفاءة البنى التحتية والحدائق والصحة والبيئة الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: المدينة المنورة، جودة المدن، التأهيل الحضري، البشر والبيئة، الخدمات الأساسية.

Abstract : This research aims to identify essential methods that help improve the quality of life in a particular urban environment in Medina, in light of the slum quarter problems, and an attempt to treat these problems from a formal aspect that aims to remove visual distortions. However, these interventions don't deal with the public services or helps improve the quality of life according to the lifestyle and living standards indicated in the body of this research. This problem is exacerbated by the spread of residential slums in the area of Mount Uhud, the negative impact on it, and the conflict with the concepts of preserving the historical memory of the place and its environmental surroundings. Therefore, it becomes necessary to define the concepts of quality and present them as a guide to enlighten the decision maker in rehabilitation projects, including various dimensions that affect the human, historical and cultural aspects.

The methodological approach has focused on documentation of research and articles on this topic while gathering information on the field due to the lack of relevant studies and researches. The researcher relied on reading the official documents, plans, tables, instructions and results of their application in the existing situation, explaining the contradictions that indicate methodological problems in the implementation process of the projects. The research concludes with recommendations that include concepts that help understand the essential objectives of the document recently approved by the Ministry of Municipal and Rural Affairs and Housing and how to apply the urban standards in the field.

Keywords: Medina; Quality of Cities; Urban Rehabilitation; Humans and Environment; Basic Services.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

جاء الإسلام إلى المدينة المنورة بتعاليم ومبادئ ذات طابع إنساني أثرت على ثقافة ساكنيها وبيئتها العمرانية، فأصبحت أهمية الفرد مرتبطة بتفاعله مع المجتمع وعلاقات الجوار، وتقلصت الاهتمامات الذاتية لحساب المصلحة العامة طبقاً لضوابط معنوية ومادية محددة، وصيغت قواعد العيش المشترك في إطار واجبات واحترام حقوق وأعراف متوارثة.

وقد وردت على المستوى البيئي أحاديث نبوية مختلفة توضح أهمية مواقع طبيعية وأماكن بعينها بالمدينة، وتعد هذه بمثابة مفاهيم مستجدة في الحفاظ على البيئة والتوازن النوعي مع الإنسان ومقدراته، فكان هناك اهتمام ملحوظ بمزارع النخيل والوديان بما يشمل الحياة النباتية والحيوانية، حتى أن جبل أحد أعطي صفة "بشرية" في الحديث الشريف "جبل أحد يحبنا ونحبه". إضافة إلى ذلك فكان هناك اهتمام بتنظيم أعمال الناس التجارية، إذ تأسس سوق المناخة والذي يعد نمطاً مستحدثاً للأسواق المقامة على أساس حر، يحترم كرامة الإنسان وبخاصة الفقراء، ويعمم قاعدة الإقتصاد والمساواة "Economy and Equity"، دون احتكار للأرض أو الموقع التجاري. وقد شكل ذلك نموذجاً لمدن غربية مختلفة تعمل حالياً بهذا المبدأ في أسواق الأحياء المتنقلة.

أما الأحياء السكنية في المدينة فمن سماتها وخصائصها العمرانية أنها كانت منتشرة حول الحرم النبوي الشريف، ومتداخلة فيما بينها ومترابطة من خلال الأزقة والساحات المفتوحة، وقد اتسمت بناياتها بتراص الجدران وانخفاض الارتفاع، وشكلت الأحواش المتكررة في الأحياء نمط النسيج العمراني الاجتماعي وأسلوب الحياة من حيث الفعاليات الاحتفالية بالأعياد والطهي والعادات المشتركة (الحصين، 2013).

وقد ساهمت التطورات التي حدثت في المدينة المنورة وبخاصة خلال العقود الخمسة المنصرمة تغير في طابعها الاجتماعي وعلاقته الإنسانية مع السياق العام، فقد تقلصت في نهاية القرن العشرين وبداية الواحد وعشرين مزارع النخيل إلى نسبة أقل من النصف، وظهرت تجمعات عشوائية منتشرة تزيد عن 40% من الناتج الإسكاني العام والخاص (أنظر شكل 2)، أما سوق المناخة التاريخي فقد ازيل لتحل مكانه شبكة طرق وأنفاق، وقد هدمت معظم الأحياء التاريخية المحيطة بالحرم، واستبدلت بكتل خرسانية تختلف عن النمط التراثي من حيث تقسيم الأراضي والفراغات المفتوحة وحجم البنايات وطبيعة المواد، مما أثر ذلك على تغير كلي للنسيج الحضري والهوية العمرانية للمدينة. واكتفى المخطط الإرشادي للمدينة المنورة المصادق عليه عام 2012 بتحديد مناطق استعمال الأراضي واشتراطاتها التنظيمية، دون وضع آليات تنفيذية تخص المناطق العشوائية. بينما تشهد المدينة منذ عام 2018 تطورات كبيرة تشير إلى توجه جديد في عمليات التنظيم وتأهيل المواقع الطبيعية والعشوائية، فقد بدأت أعمال تطوير حضرية متميزة في وادي العقيق، وتم تنظيم فسح وفراغات عامة وحدائق في محاذاته وفي مواقع أخرى، وكان هناك العديد من أعمال تحسين الصورة البصرية للمناطق السكنية العشوائية وبخاصة في محيط جبل أحد. وفي هذا الإطار يناقش البحث معايير جودة الحياة بشكل عام، ويبحث في جودة البيئة السكنية في محيط جبل أحد بالتحديد، ويحلل نهج وأسلوب عمل هيئة تطوير المدينة في تأهيل هذه المناطق، وذلك في إطار وثيقة جودة الحياة 2020 والتطلعات الخدماتية للاحتياجات الثقافية والبيئية والصحية والاقتصادية، التي أطلقتها وزارة البلديات والشؤون القروية والإسكان.

1. مفهوم أنسنة المدن

عندما تختنق المدن في الوقت المعاصر بسبب اكتظاظ الحركة المرورية وارتفاع نسب التلوث البيئي وقلة المتنفسات الخضراء والمناطق الاجتماعية التشاركية، وعندما تتقلص حركة المشاة الآمنة ولا يجد المعاقين جسديا ممرات مناسبة للحركة، وعندما تتكون جزر حرارية في قلب المدن وتغيب مقومات الراحة الصحية والنفسية، فإن المدن تحتاج أن تعود كونها بيئة حاضنة للمقياس الإنساني أولاً بكل ما تعنيه الكلمة من أساسيات ضرورية لمعايير جودة الحياة. ويعرف مشاري النعيم أنسنة المدن بأنها تعني "ملء الفضاء العمراني المادي بالحياة، على أن تكون هذه الحياة ذات جودة ومقبولة من الناس وتحتويهم جميعاً. ويدعو النعيم إلى تغيير الدور المتعارف عليه للبلديات، وتحويلها إلى مؤسسات تحمل اسم إدارة جودة المدينة" (النعيم، 2018). بينما هناك من يرى بأن الكثير من الاشتراطات التنظيمية "المستوردة" التي فرضتها البلديات هي أحد أسباب تقلص جودة الحياة، وذلك مقارنة بالمدن التاريخية حينما كانت وسائل التخطيط تبدأ من الأسفل إلى الأعلى وليس العكس، وعندما كان حق الجار والحفاظ على راحته وعدم التعدي على حقوقه وخصوصيته هو الأساس في النمو العمراني (أكبر، 1992 ، ص 189).

ولكن هناك مدن حديثة عديدة تطورت بها آليات التخطيط الحضري، واستحدثت بها مفاهيم الاستدامة والتي تتمحور حول الإنسان وسياقه المحيط بما يشمل المواد والطاقة والبيئة والرفاهية والراحة النفسية والعيش الكريم (Shelton et al, 2015). وهناك من عمل على تطوير أسلوب الحياة ونمط العيش والعلاقات المجتمعية، مما يعزز مستوى الأمان ويحد من مشاكل الجريمة ويرفع من قيمة المكان وانتماء الأفراد واندماجهم ومشاركتهم

الفاعلة في عملية التطوير والتنمية. ويعزز ذلك من وسائل تخطيطية رفع كفاءة البنى التحتية الأساسية والخدماتية (الكهرباء والماء والصرف الصحي والشبكات التقنية) بما يشمل توفر المدارس الأساسية والحدائق والمواقف ودور العبادة والمباني الخدماتية العامة ضمن حدود المجاورات السكنية، بحيث لا تتطلب استخدام المركبات للوصول إلى هدفها (المزيد والزامل، 2021). ولهذا فإن تخطيط المجاورات السكنية انتقل من مجرد تقسيم قطع أراضي تحكمها الارتدادات والارتفاعات، إلى توزيع ذكي للمجاورات والخدمات والفراغات العامة وحركة المرور.

وقد رأى ميسنر وآخرون بأن المجتمعات البشرية الصناعية في القرن العشرين أعطت الأولوية لتنمية الإنتاج والتكنولوجيا وتحقيق الربح، بينما برزت الحاجة إلى إضفاء الطابع الإنساني البيئي "Ecohumanization" للحياة والتوجه نحو الاحتياجات الروحية للإنسان. "فقد يؤدي التركيز على الأولويات الصناعية إلى مهاجمة الطبيعة التي تؤدي بدورها إلى موت الجذور الطبيعية والوجودية ومصادر النزعة الإنسانية الاجتماعية" (Meisner et al, 2019, P. 1659). وقد وصلنا حديثا إلى مصطلح مدمج بين المدينة الذكية والانسانية، حيث يوظف "نظرياً" الذكاء الصناعي في تطوير الخدمات وتوفير عوامل الراحة مع التأكيد على زيادة المدخول المالي، ولكن في مسيرة تتوافق مع الحقوق والمساواة والأخلاق ... بينما تحول مفهوم المدن الذكية إلى بيئة استهلاكية يحددها "الخبراء" بعيدا عن مشاركة الناس الفعلية والتي يكون فيها دورهم فقط كعناصر مستهلكة في المنطق الليبيرالي الجديد" (Kitchin, 2018, P.2) . لذا فالمواطن له الحق في أن يكون له دور فاعل في العملية التخطيطية، ويبدأ حقه في فهم متطلبات المدينة الذكية ومكوناتها وماهية وكمية الخدمات التي تمنحها وما هي حدود خصوصية الإنسان فيها. (Hollands, 2008, P. 303)

وتتسائل افرويمسون وآخرون (Efroymson et al, 2009, P.4) ماذا يجعل من المدينة ذات كفاءة عالية وجاذبة للتواجد والعيش بها؟ وفيما إذا كان ذلك ممكنا في التنوع وكثافة التبادلات والعلاقات؟ ويود الباحث الجواب من خلال تجربته بزيارة نيويورك، فقد وجدها مفعمة بالحياة والحركة وفاعلية المواصلات وجودة الخدمات والحدائق العامة. وتفاجأ من حيوية ساحة التايم سكوير والتي تبدو بشكل شريط مستطيل غير منتظم ومحاط بمبان شاهقة يغلب عليها الأضواء الصاخبة والإعلانات العملاقة المتلفزة. وفي المقابل فإن التواجد الكثيف للناس في هذه الساحة وتفاعلهم في نشاطات فنية مبدعة يعطي حميمية يصعب وصفها إلا بالتواجد الشخصي وليس الافتراضي هناك، لذا فإن أهمية المكان وجاذبيته ترتبط بالتفاعل الإنساني معه وبتواجده المستمر. وتعد ساحة جمع الفنى في قلب مراكش مثال آخر على ذلك التفاعل الشعبي، وهذا ينطبق أيضا مع نظرة الباحث جيهل، إذ يرى بأن الناس هم موضوع "الحياة" الأهم في المدن، حيث تجربة الأشخاص الذين يتحدثون ويتحركون في محيط من المباني والألوان والتي تمثل ثروة من التنوعات الحسية. (Gehl, 2011, P.31).

وإذا أردنا قياس حيوية المدينة من خلال قدرة الفراغات العامة على جذب الناس ولقاءاتهم وتفاعلهم بها، فمن الممكن تسليط الضوء على الأسواق التجارية الكبيرة (المولات) حين تصبح بديلاً عن الفراغات العامة، فهذا يعني انها تقدم خدمات يستمتع بها المستخدمون ويجدونها متنفسا مناسبا لقضاء وقتهم في صالات الطعام أو الالتقاء أو التسوق أو غيرها من النشاطات. وقد وصفت افرويمسون وآخرون (Efroymson et al, 2009, P.9) نقلاً عن الباحث بنالوسا (Penalosa, 2004) تفضيل الناس للمولات عوضا عن الفراغات العامة بأنها أعراض مرض المدينة أو مرض المجتمع. إذ نجد في المدينة المنورة على سبيل المثال وليس الحصر، بأن المولات التجارية تتزايد في الحقبة الزمنية الأخيرة مما يشير إلى زيادة المستخدمين لها، وربما تفضيل الناس لها عن استخدام الفراغات العامة المفتوحة له أسباب كثيرة، مثل كفاءة الخدمات ومواقف السيارات والتكييف الصناعي والراحة في التنقل وجاذبية التصميم الحضري وفعاليته وغيرها من عوامل الجذب.

وفي حديثنا عن الأحياء العشوائية التي تقوم بشكل مخالف للاشتراطات التنظيمية وتفتقر لخدمات تعد أساسية من متطلبات الجودة الحياتية، وعندما تصل نسبة هذه الأحياء إلى نصف الناتج السكاني أو يزيد، فإن هذه معضلة كبرى أمام المسؤولين. وفي هذا الإطار سوف نتحدث فيما يلي عن إشكالية جودة الحياة في إحدى المناطق العشوائية في محيط جبل أحد، وفي كيفية معالجة هذه المشكلة في ضوء إطلاق مبادرة أنسنة المدينة المنورة خلال المؤتمر الأول الذي احتضنته هيئة تطوير المدينة عام 2018 بإسم "أنسنة المدن" ودعت إليه خبراء دوليين مختصين في هذا المجال.

2. المخطط الإرشادي المديني والمناطق السكنية

تبلغ المساحة الإجمالية للمدينة المنورة حسب المخطط الإرشادي حوالي 589 كم^2 منها 99 كم^2 تشغلها المنطقة العمرانية، يصل عدد السكان قرابة مليون ومئتي ألف نسمة، بكثافة سكانية منخفضة نسبيا تقدر بنحو 2037 شخص/ كم^2 من المساحة الإجمالية، مما يؤشر إلى التوسع الأفقي على مساحات شاسعة من الأراضي والتي تعد في غالبيتها داخل واحة المدينة الصالحة للزراعة.

وحيث أننا نسلط الضوء في هذا البحث بالتحديد على النمو العمراني في محيط جبل أحد لما له من تأثير على جودة الحياة في واحدة من أهم مناطق المدينة المنورة، فقد عانت هذه المنطقة في نهاية القرن الماضي من نشاط عمراني غلب عليه الطابع العشوائي، إذ تأثر ذلك بشكل غير مباشر بمخطط توسعة الحرم النبوي الذي شهدته المدينة عام 1984، والذي كان يهدف بالتحديد إلى زيادة عدد المصلين وتطوير المنطقة بتركيز الخدمات الفندقية والمحال التجارية في محيط الحرم بمساحة تنحصر في 2كم مربع تقريباً. ويبين الشكل (1) مخطط مركز المدينة المنورة عام 1925 ثم حدود توسعة الحرم عام 1984، حيث تظهر حدود المسجد النبوي وساحاته الجديدة بعد تفريغها بالكامل واحلال الفنادق والمباني التجارية بعد اتمام عملية التوسعة.

الشكل (1): مقارنة النسيج العمراني التاريخي مع توسعة الحرم النبوي الشريف

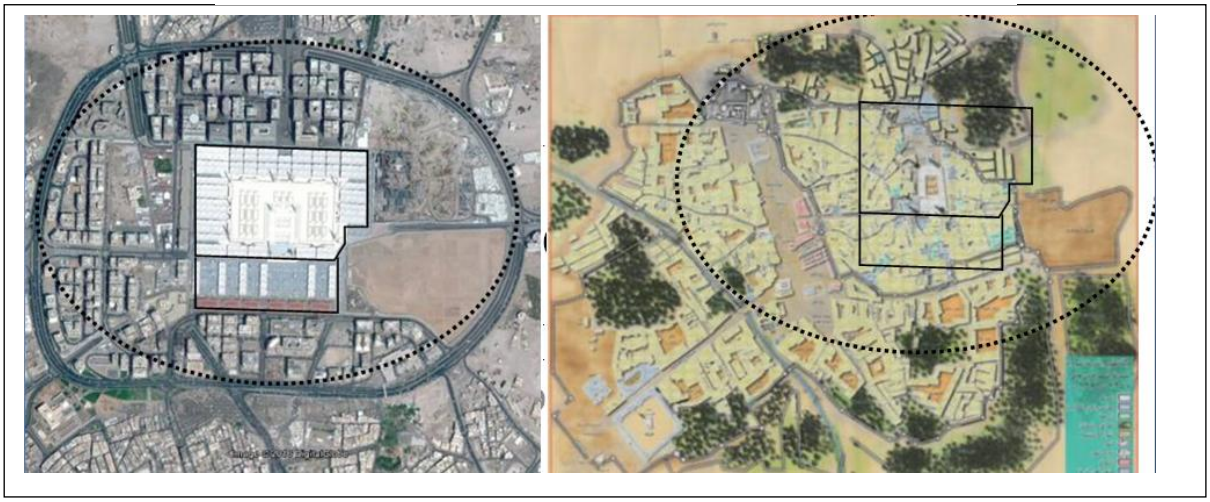

المصدر: (أبوالهيجاء، 2018 ، ص 15) بتصرف عن صور جوية ل Google Earth 2018

أما المناطق الواقعة خارج هذا النطاق وبخاصة تلك التي انتشرت بها الأحياء العشوائية كما يظهر في الشكل (2) فلم تحظى بنفس المستوى من الخدمات والتنظيم العمراني ومتابعة العمليات البنائية وما تبعها من ارتفاع أسعار الأراضي والحاجة المتزايدة للسكن (أبوالهيجاء، 2016). وفي ظل هذه الظروف تمت المصادقة عام 2012 على مخطط إرشادي (General Master Plan) للأراضي عمل بدوره على تأكيد تقسيم المدينة المنورة إلى منطقة مركزية صغيرة (ذات كثافة بنائية عالية يصل ارتفاع المباني فيها إلى 14 طابق) مخصصة للزائرين المعتمرين وتحتوي على كافة مستلزمات راحتهم واحتياجاتهم التسويقية .

الشكل (2): المناطق العشوائية والحالة الإنشائية للمباني في المدينة

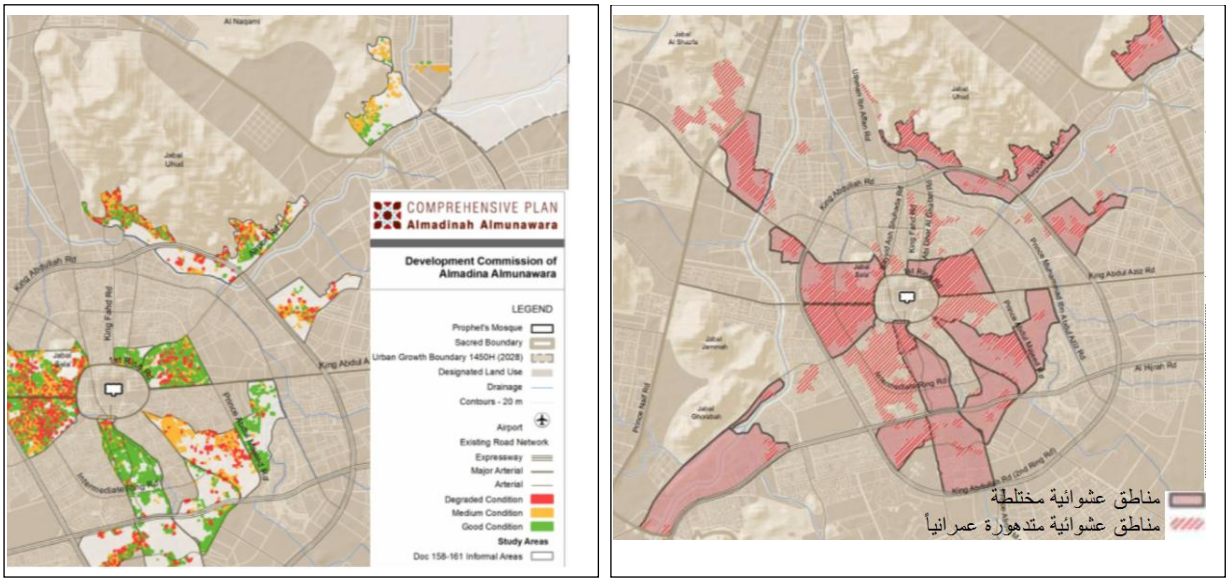

المصدر: Moriyama، 2011، ص 78 في اليمين وص 73 في اليسار

يبين الشكل (3) المخطط الإرشادي المعتمد، ونلاحظ منطقة الحرم عالية الكثافة في اللون البني الداكن، وتظهر المناطق السكنية متوسطة الكثافة في اللون البرتقالي، وحددت المناطق السكنية منخفضة الكثافة باللون البيج. ويشير اللون الأخضر إلى مزارع النخيل، أما اللون الأزرق فيشير إلى المناطق الخدماتية.

الشكل (3): المخطط الإرشادي للمدينة المنورة

المصدر: أمانة منطقة المدينة المنورة، 2012 ، دائرة التخطيط

وتزيد مساحة المنطقة المحيطة بمركز المدينة عن 90 كم مربع، قسمها المخطط إلى أحياء سكنية واستخدامات تجارية وخدماتية، غالبية المناطق السكنية فيها متوسطة الكثافة (أربعة طوابق سكنية باستخدام نسبة 60% من مساحة الأرض) إلى منخفضة الكثافة (طابقين باستخدام نسبة 60% من مساحة الأرض)، ويقع بها جبل أحد ووادي العقيق ومزارع التمور وأجزاء من حرات المدينة (الحرات هي لابات بركانية مكونة من حجارة بازلتية ذات نتوءات مدببة في الغالب).

وتوضح الكثافات البنائية أن المخطط الارشادي قد عزز التوسع الممتد أفقيا، وغالبا يكون هذا النوع من التوسع على حساب الأراضي الزراعية، والتي تخضع بطبيعة الحال إلى عمليات تقسيم وشق طرق وتفتيت ملكيات. وكما هو متعارف عليه في علم التخطيط فإن المخطط العام يحتاج إلى مخططات تفصيلية "Detailed Plans and Technical Norms" توضح الآليات التشريعية والتقنية في التعامل مع المناطق العشوائية، إذ لا يكفي تحديد مواقعها كونها مناطق سكنية متوسطة الكثافة باعتبارها مناطق "جديدة"، فهي لا تزال تتطلب أحكام واشتراطات خاصة سواء بهدمها أو تأهيلها بما يضمن رفع جودة الخدمات بها. وقد اكتفى المخطط بتقسيم الأراضي حسب نوع الاستعمال، وهذه أيضاً تحتاج إلى معايير قياسية "Urban" Public Standard للخدمات العامة نسبة إلى الكثافات السكانية. ولا يتضح في المخطط طبيعة النموذج العمراني "Metropolitan Model" المفترض أنه قائم على أساس مدينة دينية الطابع لها متطلبات خاصة بطرق المشاة والمسارات المأثورة والمعالم التاريخية التي يهتم بها الزوار خارج الحرم الشريف مثل أحد والعقيق والمساجد والآبار النبوية، وغيرها من المواضيع الأساسية في تهيئة المواقع الدينية بالخدمات السياحية وبنيتها التحتية الملائمة (أبوالهيجاء، 2018).

وقد تبنت المملكة سياسات جديدة في نهاية العقد الأخير، واعتمدت وزارة البلديات والشؤون القروية والإسكان بالسعودية وثيقة في غاية الأهمية أطلق عليها "برنامج جودة الحياة 2020"، من أهدافها "دعم المدن غير المهيئة انسانياً وتأهيلها وتهيئتها عبر إنشاء مناطق مفتوحة مثل الساحات والملاعب والحدائق والمسطحات الخضراء، وإنشاء شبكة من ممرات المشاة وتزويدها بمرافق لذوي الاحتياجات الخاصة، وتطوير الأماكن الترفيهية للاحتفالات والمهرجانات والأعياد والمناسبات لخلق بيئة صحية مريحة وصديقة للبيئة. والأثر المتوقع من المبادرة هو "تحسين صحة ورفاهية السكان وتعزيز العلاقات الجيدة داخل المجتمع وتعزيز البعد الانساني وتقوية الروابط الإجتماعية" (وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان، برنامج جودة الحياة 2020). ومن المتأمل أن تترجم هذه الأفكار الاستراتيجية على مشاريع التخطيط والإسكان المستقبلية.

3. جبل أحد ومحيطه السكني

يحيط بالمدينة المنورة جبال وتلال عديدة ذكرت بالسيرة النبوية وأهمها جبل أحد وتلة الرماة وجبل ثور وتيأب والراية وثنيات الوداع وسلع وعير والجماوات. وأهمها جبل أحد وتلة الرماة حسب الأحاديث الدينية والغزوة التي حدثت هناك في العام الثالث للهجرة.

الشكل (4): جبل أحد ومحيطة

المصدر: Google Earth 2021 (بتصرف)

يقع جبل أحد على بعد أربعة كيلومترات تقريباً شمال الحرم النبوي الشريف، يبلغ طوله 7 كيلومترات وعرضه بين 1.5 و 3 كيلومتر وارتفاعه عن سطح البحر 1077 متراً، ويمتد الجبل كسلسلة إلى الشمال الغربي. سمي بجبل أحد لأنه يرمز لوحدانية الله حسب بعض الآراء، وهو مكون غالباً من الجرانيت الأحمر يمتزج أحياناً مع صخور داكنة اللون، ويحتوي على العديد من المعادن منها الحديد والنحاس. يتخلل الجبل شعاب عديدة ومهاريس (حفر طبيعية) بأعماق مختلفة تتجمع فيها مياه الأمطار. ينتشر بالجبل نباتات عشبية مختلفة منها الضب والحميض والطرف والشفشاف والحنظل والنجيل وغيرها من النباتات الموسمية التي يعتمد ظهورها على مياه المطر.

وقعت معركة أحد بين المسلمين وقريش السنة الثالثة للهجرة في الجزء الجنوبي الغربي من الجبل، استشهد فيها سبعون مسلماً، دفنوا جميعاً في مكان المعركة ومنهم عم الرسول عليهما السلام حمزة بن عبد المطلب. اشتهرت غزوة أحد بتلة الرماة التي تبعد 400 متر تقريباً عن الجبل حيث اعتلاها الرماة المسلمون لمنع فرسان قريش من إحاطة المسلمين من الخلف. كما يشتهر الجبل تاريخياً بوجود الشق أو المغارة التي احتمى بها رسول الله عندما تشتت المسلمون على أثر ترك الرماة مواقعهم.

يعاني جبل أحد ومحيطه حالياً (كما يظهر في الشكلين 4 و 5) من مشكلات عديدة أهمها تواجد بيوت وأحياء عشوائية منتشرة في محيطه، كما أن هناك بناء مشاريع اسكانية كبيرة ملازمة للجبل، إضافة إلى بناء مسجد ضخم ومدرسة أطفال داخل ساحة موقعة أحد وإعاقة جزئية للتواصل البصري بين مشهد ساحة المعركة والجبل.

الشكل (5): المشهد الحالي لجبل أحد ومحيطه الجنوبي

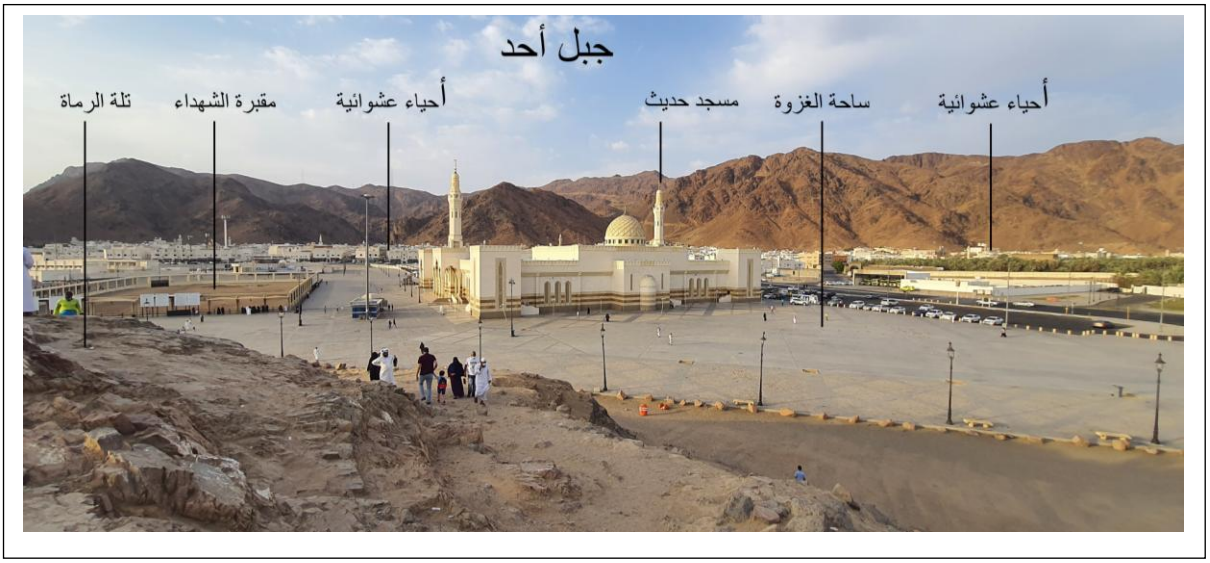

المصدر: الباحث، 2021

وبسبب أهمية جبل أحد من النواحي الرمزية الدينية والتاريخية فهو يعد معلماً مميزاً ذو قيمة تراثية عالية على المستويين العالمي والإسلامي، وهذا يتوافق مع مبادئ ومفاهيم الحفاظ التي تضمنتها المواثيق الدولية الداعية إلى احترام المعلم بمكوناته الطبيعية والأصلية وما يحيطه من سياق عمراني، إذ يوضح ميثاق البندقية لعام 1964 في المادة رقم (6) بأن الحفاظ على معلم تاريخي يقتضي أيضاً الحفاظ على الظروف البيئية المحيطة به، ويؤكد على ضرورة الحفاظ على النسيج التاريخي بعدم إحداث تغييرات تؤثر على طبيعته وتشويه ملامحه وأصالته، مما يدلل على تركه خالياً قدر الإمكان من المشاريع والمباني التي تعمل على تغيير المشهد التاريخي فيه. وهذا يتوافق مع ما جاء به نظام الآثار والمتاحف والتراث العمراني السعودي الصادر عام 2014 في المادة رقم (9)، البند (2) والذي يدعو إلى وجوب "المحافظة على مواقع الآثار والتراث العمراني عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى، أو توسيعها، أو تجميلها، كما تجب مراعاة حقوق الارتفاق لها، ومنها إيجاد منطقة حماية غير مبنية حول هذه المواقع بالتنسيق مع وزارة الشؤون البلدية والقروية، ولا يجوز إقرار مشروعات التخطيط التي فيها – أو في نطاقها – مواقع آثار أو تراث عمراني إلا بعد أخذ موافقة الهيئة" كما يحدد النظام في المادة (3) أنه "لا يجوز إصدار رخص البناء أو الترميم في الأماكن المجاورة لمواقع الآثار والتراث العمراني المحددة إلا بعد الاتفاق مع الهيئة".

1.3 التجمعات العشوائية في محيط جبل أحد

يعاني جبل أحد كما ذكر سابقاً من انتشار تجمعات عشوائية وبخاصة في المناطق الجنوبية والغربية منه، تكونت غالبيتها في الخمسين سنة الماضية، وقد كانت تمثل تشوه بصري كبير مما أدى إلى تدخل هيئة تطوير المدينة لعلاج هذه المشكلة بالتحديد كما سيتم توضيحه لاحقاً. وقد نشر أحد المهتمين بهذه المشكلة تقريراً حول وضع الأحياء العشوائية، مستندا إلى دراسة أعدتها وكالة وزارة الشؤون البلدية والقروية لتخطيط المدن والتي أوصت حسب رأيه إلى "نزع ملكيات بعض الأحياء الشعبية بالمدينة المنورة منها الحرة الغربية وحي الجرف الغربي وبعض المناطق الأخرى التي كشفت عن تدني المستوى الاجتماعي والاقتصادي للسكان في هذه المنطقة مما أوجد بيئة سكنية غير ملائمة، بالإضافة إلى نقص مستوى الخدمات العامة وتدهور حالة الطرق والشوارع وممرات المشاة". علماً بأن أمانة منطقة المدينة المنورة قامت بتوفير خطوط الصرف الصحي والماء والكهرباء والإنارة الليلية للحي. وقد أوضح هذا الشخص بأن هذه التجمعات تشكل معوقاً للتنمية وبؤرة للمشاكل الاجتماعية والصحية والأمنية ومناخاً ملائماً للأنشطة العشوائية وإيواء المخالفين لنظام الإقامة، وذكر بالتحديد من ضمن الأحياء التي تعاني من البطالة تلعة الهبوب الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية من جبل أحد. وأضاف إلى هذا أن: "ساكني الحي كغيرهم من ساكني الأحياء العشوائية لا يملكون القدرة على شراء منازل حديثة أو الانتقال للعيش في منازل مستأجرة، وأغلب شباب الحي لم يكملوا دراستهم وهو ما يشكل عبئا في مسألة شغل أوقات فراغهم بما يفيد" (الحدادي، 2010).

الشكل (6): تحسين الواجهات العشوائية في تلة الهبوب

المصدر: هيئة تطوير المدينة، 2018

وقد انتهت هيئة تطوير المدينة عام 2018 من تأهيل بعض المناطق العشوائية المحيطة بجبل أحد ومنها تلعة الهبوب (هيئة تطوير المدينة، 2018)، حيث يسكن الحي أكثر من 200 عائلة معظمهم مواطنون حصلوا على صكوك ملكيات من المؤسسات المعنية (حسب مقابلة خاصة أجراها الباحث مع بعض ساكني الحي في أغسطس 2021). وقد ركزت أعمال هيئة تطوير المدينة على تعبيد الطرق وتحسين المظهر الجمالي للواجهات وذلك، كما يوضح الشكل (6) ، من خلال وضع ستائر جدارية لتعديل حدود البناء على خطوط منتظمة قدر الإمكان، وعملت على إحلال مواد بناء ومفردات معمارية مقتبسة من تراث المدينة، إضافة إلى استخدام رموز وأحرف باللغة العربية تم تكرارها بشكل منسق على واجهات الستائر الجدارية المستحدثة. وقد وضعت ديكورات تجميلية أيضاً على تغطيات وحدات التكييف الخارجية، كما غيرت أحياناً أشكال الفتحات وابتكرت ذروات علوية جديدة على الجدران مزخرفة تارة بالطوب الملون وتارة بأشكال مدببة مقتبسة من العمارة التقليدية، وتم طلاء كافة الجدران باللون الأبيض خشن الملمس. ويبين الشكل (7) تجمع حي تلعة الهبوب العشوائي قبل أعمال تحسين الواجهات وبعدها.

الشكل (7): حي تلعة الهبوب العشوائي قبل وبعد عمليات التحسين

الصور في الأعلى مجهولة المصدر وتم تنزيلها من: https://www.google.com/search?q=

لا تتوفر لدى الباحث صور تفصيلية للحي قبل أعمال التحسين، كما لا تتوفر لدى الباحث دراسات اجتماعية أو عمرانية منشورة من جهات رسمية. حيث أنه من الضروري بمكان الاستناد إلى دراسات سكانية واجتماعية واقتصادية وعمرانية لساكني الحي، وبخاصة إذا كان الهدف تهيئة الموقع وتجهيز الخدمات حسب الحاجة والكم والمساحات المناسبة. وقد قام الباحث بزيارات ميدانية ومقابلات مع بعض الساكنين بالحي في تموز وآب 2021، وتبين أنه يوجد مسجد واحد يتسع إلى 150 شخص تقريبا، وتوجد بقالتين مساحة كل واحدة 15 متر مربع تقريبا، وهي مجهزة فقط للاستهلاك الغذائي المحدود. وحسب بعض المقابلات مع أشخاص منهم إمام المسجد وبعض سكان الحي الذين سكنوا فيه منذ بداية تكوينه قبل 50 سنة تقريبا، فيعتقدوا بأن أعمال تحسين الواجهات كانت مفيدة جدا بسبب علاج التشوه البصري الكبير، ولكنهم لا يزالوا يتمنوا وجود مدرسة ابتدائية ورياض أطفال ومستوصف صحي وحديقة مجهزة داخل الحي، ويتمنوا أيضا تقوية شبكة الانترنت بالألياف الضوئية وبخاصة في ظل مشكلة الفايروس كوفيد 19 حيث كان التعليم مقتصر فقط عبر وسائل التواصل الافتراضي، ولم تكن الشبكة قوية بالشكل المطلوب حسب إفادتهم.

وفي قراءة للتغييرات العمرانية للحي بعد مشروع تحسين الواجهات، فمن الملاحظ من خلال الصورة الجوية لعام 2015 وهي الفترة التي سبقت عملية التحسين، بأن الطرق والفراغات المحيطة بالمباني بقيت على ما هي عليه تقريباً ولم يشهد الموقع تغييرات عليها حتى الانتهاء من العمل بالمشروع عام 2018. لذا فمن الواضح بأن عملية التأهيل اقتصرت بالأساس على الجانب الشكلي في تحسين الصورة البصرية للتجمع العشوائي الملاصق لجبل أحد. ويوضح الشكل (8) هذه التجمعات العشوائية في محيط جبل أحد، حيث يظهر في اليمين تفصيل للتصوير الجوي لتلعة الهبوب عام 2015 قبل أعمال تحسين الواجهات بينما في الأسفل يظهر التصوير عام 2021 بعد أعمال التحسين. ويتضح من الصور الجوية بأن مشروع التحسين لم يأتي على تغييرات للطرق أو الساحات أو الفراغات الداخلية، باستثناء استحداث فراغ حديقة في الجزء الجنوبي.

الشكل (8): مقارنة النسيج العمراني بين عام 2015 وعام 2021 قبل وبعد أعمال التحسين

المصدر: (Google Earth 2015 and 2021)

ويبين الشكل (9) تجمع عشوائي آخر في المنطقة الجنوبية الغربية من جبل أحد. ويظهر النمط البنائي الموحد بعد أعمال التحسين.

الشكل (9): تحسين المنطقة العشوائية الجنوبية الغربية من جبل أحد

المصدر: (هيئة تطوير المدينة، 2018)

4. مبادئ ومعايير وثيقة برنامج جودة الحياة 2020

"يمثل البعد الإنساني قيمة عالية في بلدان انتهجت جودة الحياة يتمتع فيها المواطنون بحياة أطول وصحة أفضل، ويضاف إلى ذلك الأمن المجتمعي مدعوما بهياكل اجتماعية قوية وفرص اقتصادية متنوعة، وكفاءة أجهزة نفاذ القانون، وبنية تحتية قوية، وخيارات متنوعة في نمط حياة فعال ونشط"، من هذا المنطلق تأسست وثيقة جودة الحياة 2020 التي أقرتها وزارة البلديات والشؤون القرية والإسكان، مستندةً إلى مؤشرات معتمدة عالمياً ومنها: 1- التصنيف العالمي لقابلية العيش، وهو مؤشر سنوي صادر عن "The Economist Intelligent Unit" إذ يصنف 140 دولة حسب جودة الحياة الحضرية فيها بناء على تقييم الاستقرار، والرعاية الصحية، والثقافة، والبيئة، والتعليم، والرياضة، والبنية التحتية. 2- ميرسر / Mercer والذي يصنف 231 مدينة بناء على النقل والبيئة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والخدمات العامة، والصحة، والبيئة الاقتصادية، والمدارس، والتعليم، والبيئة الطبيعية، والسكن، وتوفر الوسائل الإعلامية، والمسارح، ودور السينما، والرياضة، والسلع الاستهلاكية، والمطاعم، والاستجمام. 3- قائمة مجلة مونوكل/ Monocle وهي قائمة سنوية تضم 25 من أفضل المدن المعيشية في العالم، ويكون التقييم بناء على الاتصال العالمي، والقضايا البيئية، وامكانية الوصول للأماكن الطبيعية، والجودة المعمارية والتصميم الحضري، والرعاية الصحية، وبيئة الأعمال، والجريمة والأمن، والثقافة، والمطاعم، والتسامح، وتطوير السياسات المبادرة. (برنامج جودة الحياة 2020، ص 8)

وقد تم تحديد مؤشرات جودة الحياة 2020 في مفهومين: الأول يرتبط بقابلية العيش، وهي تهيئة ظروف العيش من أجل حياة مرضية، وقد شملت البنية التحتية والنقل، والإسكان والتصميم الحضري والبيئة، والرعاية الصحية، والتعليم والفرص الإقتصادية، والأمن والبيئة الاجتماعية السياسية. أما الثاني فيخص نمط الحياة، وهو توفير خيارات للناس لتكون لديهم حياة ممتعة ورغيدة، وتشمل الرياضة والتراث والثقافة والترفيه والترويح والمشاركة الاجتماعية.

وقد وضعت الوثيقة تسع عشرة هدفاً متعلقاً بأبعاد قابلية العيش نذكر منها:

تعزيز القيم الإسلامية والهوية الوطنية، وغرس المبادئ والقيم الوطنية وتعزيز الانتماء الوطني، والمحافظة على تراث المملكة الإسلامي والعربي، والارتقاء بجودة الخدمات المقدمة في المدن (المرافق ووسائل النقل العامة وغيرها) وتحسين المشهد الحضري في المدن، وتمكين حياة عامرة وصحية. ويبين الشكل (10) تطلعات برنامج جودة الحياة 2020 لتحقيق الرؤية.

الشكل (10): تطلعات برنامج جودة الحياة 2020

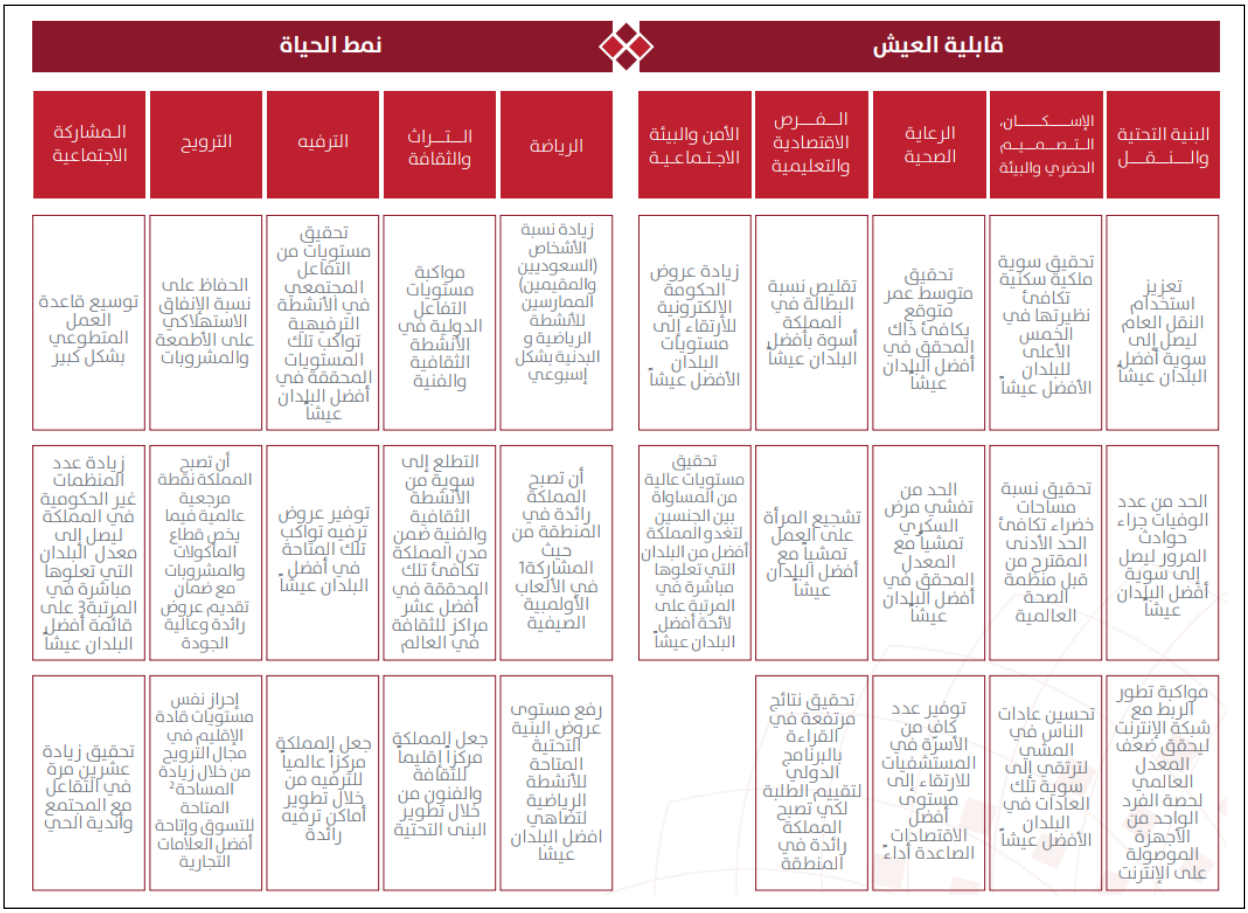

المصدر: (وزارة البلديات والشؤون البلدية والقروية والإسكان، وثيقة جودة الحياة 2020 ، ص 30)

5. النتائج ومناقشتها

تناول البحث موضوع تجمعات عمرانية متواجدة في منطقة ذات حساسية كبيرة في المدينة المنورة محيطة بجبل أحد. وهنا برزت نقطتين: الأولى إشكالية تواجد التجمعات العشوائية في هذه المنطقة التاريخية، والثانية منهجية تأهيل التجمعات العشوائية حسب معايير جودة الحياة إنسانية الشكل والمضمون.

ويعد منهج حماية المعالم التاريخية الضخمة مثل جبل أحد ذو أهمية بمكان تقتضي الحفاظ على قيمته الروحية والطبيعية ومكانته المعنوية، وهذا يتضمن الحفاظ على محيطه الذي شهد حدث تاريخي كبير في التاريخ الإسلامي.

وحيث أن البيوت العشوائية التي تم تحسين صورتها البصرية في محيط الجبل ليست تاريخية، فقد يكون هناك خيارين في كيفية التعامل معها حسب واقع الحال: فإما العمل على تأهيلها بحكم أنها تحتوي على نسيج اجتماعي نشأ وتطور خلال القرن الماضي، وإما إزالتها وإزالة جميع المشاريع الإسكانية الجديدة التي بنيت ملاصقة للجبل، وإقرار الجبل ومحيطه محمية طبيعية ذات أحكام وشروط خاصة. وحيث أن هيئة تطوير المدينة قررت العمل بالخيار الأول، فقد ركز البحث على مفهوم أنسنة المدن، وبالتحديد جودة الأحياء السكنية في سياق الإرتقاء بالبيئة العمرانية أو تأهيلها على مستوى البنى التحتية والخدمات والفراغات والعامة وغيرها مما ذكر سابقا في متن البحث، وتم التنبيه على أن أعمال تحسين المظهر الشكلي والصورة البصرية، وإن ساهم في إضافة نوعية ومميزة على الطابع العمراني، إلا أن هذا الحل وحده لا يكفي حسب المؤشرات التي وردت في وثيقة جودة الحياة 2020 التي أعلنت عنها وزارة البلديات. وفي هذا السياق فقد تم عرض المخطط الإرشادي للمدينة المنورة وتبين بأن هناك مشكلة منهجية تتمثل في ضرورة اشتراط حد أدنى من الخدمات الأساسية لازم توفيرها لكل فرد، سواء في الأحياء الجديدة أو تلك القائمة التي تحتاج إلى تأهيل وتطوير. وللتوضيح،

فإن الأنظمة الإيطالية في إقليم لومبارديا (على سبيل المثال) تشترط توفير 26 متر مربع لكل فرد كحد أدنى للخدمات الأساسية داخل المجاورات السكنية (أنظر تجربة محافظة سوندرو وبلدة مونتيفيكيا في التنظيم العمراني، أبوالهيجاء، 2011، ص. 53-61). وتتمثل هذه الخدمات بالحدائق العامة وملاعب الأطفال والشباب والمباني الخدماتية مثل المدارس الأساسية للمرحلتين البتدائية والإعدادية ودور العبادة والمراكز الحضرية المعدة للاجتماعات والمشاركة في نشاطات ثقافية وسياسية وتنظيمية. وقد فصلت المعايير القياسية لتوزيع الخدمات بحيث يتوفر حد أدنى 14.5 متر مربع/ساكن للحدائق العامة والملاعب الرياضية، و 3 متر مربع/ساكن لمواقف السيارات، و 4.5 متر مربع/ ساكن للمناطق التعليمية (حضانة، رياض الأطفال، المدارس الابتدائية والإعدادية)، و 4 متر مربع/ساكن للمنشآت الدينية والمنفعة العامة (أماكن العبادة، مراكز اجتماعية، مباني خدماتية مثل البلدية والبريد والاتصالات. ومن الجدير بالذكر بأن هذه المقاييس تحددها قوانين التنظيم الإيطالية حسب الأقاليم، وتلزم تحقيقها عند المصادقة على المخططات الحضرية في المستويات البلدية والمحافظات، وهذه تعد من الآليات التنفيذية الأساسية في تطبيق معايير الجودة العمرانية للخدمات.

لذلك يوصي البحث باستكمال أعمال التأهيل في محيط جبل أحد استناداً إلى نهج متطور في وسائل التخطيط وآلياته، وذلك لضمان توفير قاعدة صلبة سواء في تنظيم التجمعات العمرانية الجديدة، سواء في كيفية تأهيل المناطق العشوائية والمعايير اللازمة لتحقيق متطلبات الجودة الحياتية. ويعد وضع هذا النهج الجديد خطوة مهمة في مسيرة التأكيد على مفاهيم الإستدامة وترشيد استهلاك الأراضي والطاقة والمياه وصولا إلى الذكاء الصناعي وتجيير التقنيات والتكنولوجيا الحديثة في توفير مقومات الجودة السكنية، مع الحرص على اشتراطات الراحة والصحة والحفاظ على التاريخ الحضاري، تماشيا مع أهداف وثيقة جودة الحياة 2020. وعليه فلا بد من تأسيس أطر تنفيذية تتبناها المؤسسات المعنية بتخطيط الأراضي في المملكة، مما يتطلب تحديد مقاييس معيارية لكافة الخدمات الأساسية العامة، وتكون إلزامية توفرها عند إعداد المخططات التنظيمية على مستوى الأقاليم والمحافظات والبلديات والأحياء.

الإحالات والمراجع:

1. أبوالهيجاء, أ. (2011). *أساليب ومعايير حماية التراث العمراني والمعماري*. عمان: مطبعة الخط العربي .
2. أبوالهيجاء, أ. (2016). *التخطيط الشمولي وضوابط التهيئة العمرانية لمعالجة السكن غير الشكلي "العشوائي" في المدينة المنورة*. قُدِّم في الندوة العلمية الدولية: السكن غير الشكلي في المغرب العربي – الفضاء والسيرورات والفاعلون, الحمامات – تونس.
3. أبوالهيجاء, أ. (2018). *الاستدامة السياحية في المدينة المنورة*. قُدِّم في المؤتمر الدولي الثاني حول: الرأسمال البشري والتسويق الترابي أساس التنمية المستدامة بالواحات والمناطق الجبلية, ورزازات.
4. أكبر, ج. (1992). *عمارة الأرض في الإسلام*. جدة : دار القبلة للثقافة الإسلامية.
5. الحدادي, ع. (2010, سبتمبر 24). تلعة الهبوب حي تسكنه العشوائيات وهواجس البطالة ومخالفات الوافدة. استرجع في 10 أغسطس, 2021, من https://www.al-madina.com/article/47908/
6. الحصين , ع. (2013). *القيم المادية وأثرها في التنمية للمدن المقدسة*. قُدِّم في ملتقى التراث العمراني الوطني الثالث, المدينة المنورة . استرجع في من https://www.youtube.com/watch?v=2pJUuB8yObk
7. المزيد , م., & الزامل , و. (2021). دور اللوائح القائمة على الأشكال في تحسين جودة الحياة في الأحياء السكنية المعاصرة. *مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية*. https://doi.org/10.21608/mjaf.2021.64952.2237
8. النعيم, م. (2018, مايو 12). جودة الحياة – جودة المدينة . استرجع في 1 أغسطس, 2021, من https://www.alriyadh.com/1680911
9. هيئة تطوير المدينة المنورة , هـ. (2018). *أنسنة المدينة المنورة*. المدينة المنورة : تارة الدولية .

10. وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان, و. (2020). *وثيقة برنامج جودة الحياة* (عدد 1). استرجع في من وزارة الشؤون البلدية والقروية والإسكان /website: https://www.vision2030.gov.sa/ar/v2030/vrps/qol

11. (Architects and Planners) Moriyama and Teshima, M. G. (2011). Comprehensive Plan for Al Madina Al Munawwara (78 ص ;10 عدد-). Al Madina Al Munawwara: Development Commission of Almandina Al Munawwara.

12. Efroymson, D., Ha, T., & Ha, P. (2009). Public Spaces: How They Humanize Cities. Dhaka : Lori Jones Editor.

13. Gehl, J. (2011). Life Between Buildings, Using Public Space. Washington, D.C., United States: Island Press.

14. Hollands, R. (2008). ?Will the real smart city please stand up. City, 303-320. https://doi.org/10.1080/13604810802479126

15. Kitchin, R. (2018). Towards a genuinely humanizing smart urbanism. فيThe Right to the Smart City'. Ireland : Emerald Publishing.

16. Meisner, T., Kovalev, N., & Lyashenko , N. (2019). The Ecologization and humanization concept of modern city in the transition of society from industrialism to humanism. EurAsian Journal of BioScience, Eurasia J Biosci , (13), 1659-1665.

17. Meisner, T., Kovalev, N., Lyashenko, N., & Lepikhova, V. (2019). The ecologization and humanization concept of a modern city in the transition of society from industrialism to humanism. EurAsian Journal of BioSciences, 3(2), 1659-1665.

18. Peñalosa, E. (2004). Speech at International Mayors' Forum. قُدِّم في International Mayors' Forum, Columbia . استرجع في من https://healthbridge.ca/dist/library/Public_Spaces_How_they_Humanize_Cities.pdf

19. Shelton, T., Zook, M., & Wiig, A. (2015). The 'actually existing smart city'. Cambridge Journal of Regions, Economy and Society, 8 -25.